

هو العليم

تفسير آية

الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ %

موعظة ليلة الثلاثاء

في

٢٢ رجب سنة ١٣٩٦ هجرية قمرية

المحاضرة الخامسة

سَمَاحَةُ الْعِتَامَةِ الرَّحْلِ

آيَةُ اللَّهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فاضلنا وعلينا من بركات نفسه القدرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ% (١)

النور هو الشيء الذي يعرفونه بظاهر في حدّ نفسه وبه يظهر غيره،
وحيث أنّ الله قائم بذاته في حدّ نفسه وظاهر، وبقية الموجودات إنّما هي
ظاهرة به، لذا فإنّ الله هو نور حقيقةً.

كنا قد أتينا على ذكر مطالب من القرآن الكريم والروايات، تدلّ على
أنّ الإنسان يستطيع أن يتشرّف بالوصول إلى لقاء الله تعالى، وأنّ ذلك هو
أعلى درجات مقام الإنسان، وأنّ خلق الإنسان أيضا لم يكن إلاّ لأجل
معرفة الله تعالى، وأنّ المعرفة الحقيقية ليست سوى اللقاء والوصول. وقد
برهنا على ذلك في الأسبوع الماضي بطرق متعددة وذلك بالاستفادة من

(١) سورة النور (٢٤) الآية ٣٥.

القرآن والأخبار، وفي هذه الليلة أيضا نود أن نثبت إمكانية وصول الإنسان إلى شرف لقاء الله والتشرف برؤيته، ولكن بطريقتين آخرين، وهذان الطريقتان مما عثرت عليه بنفسني ولم أجد أحداً من المفسرين حاول أن يثبت لقاء الله من خلالهما، الآن التفتوا جيداً:

الطريق الأول: الآيات القرآنية التي تحصر الصفات الحسنى والكمالية بالله تعالى، أي تقول مثلاً: في عالم الوجود، العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والحكمة والخبرة هي كلها فقط لله تعالى منحصرة به. والآن لنر، كيف يمكن أن نقرر المطلوب ونبيته؟

هناك في القرآن الكريم آية تقول: ^٨لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ%

ف ^٨لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ% تعني أنه لا يوجد أي إله غير هذا الإله، وتحصر الألوهية والعبودية في الله تعالى أي إنها تقول: المعبود هو الله فقط، في حال أننا نرى الناس في الدنيا يعبدون آلهة مختلفة: بعضهم يعبد البقر وبعض النجوم وبعض الأصنام وبعضهم يعبد أباه والآخر يعبد أهواءه، فهؤلاء الأفراد الذين يعبدون من دون الله آلهة كثيرون جداً، إذن لماذا يقول الله: ^٨لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ%؟؟

قال بعض المفسرين: ليس المقصود من ^٨لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ% أنه لا يوجد أي إله يُعبد غير الله، وإنما المقصود أنه لا يوجد إله ومعبود بالحق غير الله، فسائر المعبودات إنما هي معبودات بالباطل، إذن المقصود هو لا معبود بالحق غير الله.

ولكن إذا قيل لهؤلاء المفسرين: لا وجود لقيد "بالحق" في الآية بل هي مطلقة ^٨ لآ إلهة% فماذا يجيبون؟!

في الواقع الآية تقول: ^٨ لآ إلهة% فعلى ماذا يدل ذلك؟ هو يعني أن كل هذه المعبودات التي اتخذتموها لأنفسكم وجعلتموها في مقابل الله، "غير الله" هي كلها ليست في حقيقتها سوى تجلّ لله تعالى، فنفس الصنم والأب والأم والنجم والشمس والقمر الذين اتخذتموهم آلهة في مقابل الله، حقيقتهم انهم تجلّ لله تعالى، إذن لا وجود لمعبود غير الله.

كل من توجه إلى معبود من المعبودات فإنما يتوجه في الحقيقة إلى الله ويبحث عنه، وكل معبود يُعبدُ ففي الحقيقة إن الله هو ذلك المعبود، غاية الأمر أن عين العابد كانت في هذه الدنيا عمياء، وقد قيدت الله في مرآة محدودة، وهنا يكمن ذنبه وشركه، فقد قيد الله في الشمس والقمر وأمثالهما، ولو ارتفع هذا التقييد وظهرت الحقيقة فسيُضح أن حقيقة نفس هذه الشمس وهذا القمر ليست شيئاً سوى الله، ولذلك يوم القيامة، حيث يرتفع الحجاب وتبين الحقائق جلية، فإن الكثير من المشركين يقولون: إلهنا ^٨ لم نكن ندعوا من قبل شيئاً%^(١).

نعم تدل آيات القرآن على هذا المعنى، أي القرآن يقول: إنهم كانوا في الدنيا من المشركين الذين عبدوا غير الله، غير أنهم في الآخرة يقولون ويعترفون بأنهم لم يكونوا يعبدون غير الله. هناك حيث كشف الغطاء، يفهمون أن حقيقة ما كانوا يعبدونه ليست سوى الله.

إذن معنى ^١اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ% أَنْ كُلَّ عَابِدٍ مَهْمَا يَعْبُدُ، فَإِنَّهُ يَعْبُدُ اللَّهَ، والذنب الأوحِدُ إِنَّمَا يَنْشَأُ بِسَبَبِ تَقْيِيدِ اللَّهِ وَتَحْدِيدِهِ بِحَدِّ مَعْيِنٍ. فلماذا يقيد الإنسان الله سبحانه؟؟ ارفع هذا التقييد، فَإِنَّ حَقِيقَةَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَحَقِيقَةَ الْحَقَائِقِ هِيَ ذَاتُ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ.

^١اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ%، كلمة ^١الْحَيُّ% ليست صفة للضمير ^١هو%، وَإِنَّمَا هِيَ خَبْرٌ ثَانٍ لِلْمَبْتَدَأِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ ^١الله%
أَيُّ اللَّهِ الْحَيُّ، وَكَذَلِكَ ^١الْقَيُّومُ% خبر ثالث: الله القيوم.
ما معنى: الله الحي؟

إِنَّهَا تَعْنِي: أَنْ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْحَيُّ فَقَطْ.

التفتوا جيداً! نحن عندما ندرس كتاب "المطول"، أَيُّهَا السَّيِّدُ أَبُو الْحَسَنِ، فلماذا ندرسه؟ لكي يفيدنا هنا في هذا المقام...، "هو البطل المحامي" ففي المثال الذي ندرسه هناك - في المطول - فإن الألف واللام في "البطل" للجنس أيّ إِنَّهُ هُوَ الشَّجَاعُ فَقَطْ، جنس الشجاعة منحصرٌ فيه، كأنه لا وجود لغيره في عالم الشجاعة.

كذلك قولنا: (الله الحي) فإنّ الألف واللام لكلمة "الحي" للجنس أيضاً، يعني الله حيّ فقط، جنس الحياة منحصر بذات الله وجنس الحيّ هو الله. (القيوم) يعني جنس القيوم الذي تقوم به كلّ الموجودات هو الله تعالى.

في نفس الوقت نحن نرى في هذه الدنيا الأنواع الكثيرة من الحياة والأحياء: فالدجاج حيّ، الحمام حي، العصفير، الذباب، البعوض،

الأسماك البحريّة، الإنسان، الملائكة، الجنّ، فما معنى هذه الأنواع من الحياة وما معنى هذه الأحياء؟! والحال أنّ الله يقول: - كما تقدم - إنّ الحياة منحصرة فيه؟

معنى ذلك أيّها الأخوة: إنّ ما لديهم من الحياة ليست حياتهم، بل هي حياة الله، هناك موجود واحد في العالم حيّ وهو الله، وهذه الحياة عند غيره استعارة ومجاز. أنت المجنون تقول: لزيد إنّه حيّ، تقول لعمر حيّ، في الحقيقة عمرٌ ميّت، زيدٌ ميّت، ليس هناك من حيّ مع حياة الله، وهذه الحياة الموجودة عندهم هي حياة الله. إذن وجوده قد استوعب كلّ الموجودات، فهي بركة وجوده تحيي وتحرّك. إذن هذه الحياة هي حياته، افتح عينك لترى أنّ وجود الله وحياته قد شمل كلّ الموجودات، وأن لا حياة لموجود معه، إلا حياة مستعارة.

إذن الله حي وكل موجود تراه وتنظر إليه على أنّه حيّ فإنّك في الواقع تشاهد أنّ الله هو الحيّ، لأنّ الله هو الحيّ ولا حياة لغيره. وماذا تُبيّن لنا الآية أيضاً؟

(القيوم) القيوم هو الذي يقوم به كلّ موجود، وهذا الموجود القيوم هو الله.

مثلاً: هذه المروحة التي تدور في السقف هي قائمة في السقف، وهذا السقف قائم بالجدران، وهذا الشخص الذي يجلس هنا ويتكئ على الجدار هو قائم به، وهذا الطفل الذي يتكئ على ركة هذا الشخص هو قائم به، بالنتيجة كلّ شخص قائم في شيء ما.

ونحن من خلال قيامنا بأنفسنا إنما نقوم بالحق، لأنّ القيوم على جميع الموجودات هو الحقّ، إذن هذه الموجودات ليست مستقلة ولا قائمة على أقدام أنفسها. ذلك القيوم الذي يرتبط به كلّ هذا القيام هو الله. إذن لا يوجد في العالم أكثر من قيوم واحد. وكلّ ما تصورناه قيوماً يجب أن نرّمى به بعيداً، ذلك القيوم هو الله.

افتح عينك لترَ أنّ جميع الموجودات قائمة به. تماماً كما قال النبي يوسف لصاحبيّ السجن: ^٨ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ%^(١) أيّ أرباب من البشر متفرقون ومشتتون ومختلفوا الآراء تعتمدون عليهم وتلجأون إليهم طالبين منهم ما تريدون خيراً أم الله الواحد القهار؟! الذي بواسطة قهره وسيطرة جلاله اندكّت الموجودات كلّها في عظمته وجلاله، فهو إله واحد فقط ذو الجلال والإكرام، أولئك خيراً أم هذا؟ إذن لا قيوم في العالم إلا الله ولا حيّ إلا الله.

من جهة أخرى لدينا في أبواب الأذكار: الحمد لله، وفي القرآن المجيد في كثير من المواضع ^٨الْحَمْدُ لِلَّهِ% إلا أنه في موضع واحد ورد: ^٨الْحَمْدُ لِلَّهِ%؛ هنا أيضاً الألف واللام للجنس، وهو حملٌ إخباريٌّ معرّف بالألف واللام على المبتدأ، أو أنه مبتدأ معرفٌ بألف ولام ممّا يفيد الحصر. ^٨الْحَمْدُ لِلَّهِ% يعني أنّ جنس الحمد منحصر بالله تعالى.

الحمد يعني المدح والثناء والتمجيد. فالإنسان يقوم بالكثير من المدح والثناء للموجودات، نحن مشغولون ليلاً نهاراً بالمدح والثناء

والتمجيد حيث نقول: يا لهذا الهواء الربيعي! يا له من نسيم منعش! ما أجمل هذه الشمس! ما أروع هذا العلم الذي تبتهج القلوب له! ما أروع ذلك القمر المشع في الليل! ما أجمل شجرة السرو هذه! ويا لهذا الماء الزلال! يجلس الإنسان قرب الجدول ويرمي بنظره إلى تلك المناظر الخلابة من الجبال فيأخذ بتمجيدها... جمال الإنسان وكماله، طول الحسناء، طول شجرة السرو، العين الواسعة كعين الغزال، الكمال العلمي: فلان يمتلك ذلك الفن، يا له من إنسان جيد، يا له من كامل!!! في النهاية كل ذلك تمجيد نحن نقوم به.

يضع الإنسان أمامه دجاجة ويأخذ بالتأمل فيها: كيف هو منقارها؟ وكيف معدتها؟ وكبدها ورجلها؟ كيف تصيح؟ وكيف هم فراخها؟ هذا كله حمد، كل هذا الحمد الذي نقوم به، هذا الحمد بأجمعه هو لله تعالى. تضعون أمامكم باقة من الورد، تقولون: ما هذا الورد؟! كم هو جميل؟! ما أجمل رائحته؟! كم تبدو خلابة هذه الورد المزرکشة بين الأغصان الخضراء؟! كم يضيف على الرائي من النضارة؟! يا له من شيء جميل؟! هذه التمجيدات هي لله تعالى.

لا تقل: ما أجمل الورد، وإنما قل: ما أجمل الله! كذلك لا تقل: ما أجمل الإنسان.. بل قل: ما أجمل الله، فهذا التمجيد له. يا له من جبل! يا له من ماء! يا له من جمال خلاب! يا له من علم منور للقلب! يا له من قمر منير! جميع هذه المحاسن منحصرة بالله تعالى والله هو الجميل فقط. فإذن، قوله تعالى: ^٨ قُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ% يعني: أن لا موجود يليق بالحمد غيره، فالذي يستحق الحمد بالذات هو الله، وفي النهاية هو الذي أعطى هذه

الموجودات رونقها، وأما العميُ فإنهم يرون أنّ هذا الرنق من نفس الموجودات لذلك يمدحونها، هذه العين يجب أن تبدل لترى الرنق من صاحب الجمال الذي هو الله، فتمجّده وتحمده، وهكذا يكون ^٨الْحَمْدُ لِلَّهِ% و ﴿لِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ وأما الأفراد فإنهم فاقدون للمعرفة والبصيرة، لا يدركون هذا المعنى، يرون الموجودات مستقلة، وإنما يتوجّهون بالحمد إليها مباشرة، لذا يقول الله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل إنّ جميع مراتب الحمد مختصة بالله ولكن أكثر الناس لا يفهمون ذلك.

إنهم يتخيلون أنّ زيدا هو الذي شفا أطفالهم، وأنّ البناء هو الذي بنى هذا المبنى، وأنّ الماء هو الذي أحيى أكبادهم الحرى وأرواها، فهم يتخيّلون ذلك ولا يأتون على ألسنتهم بذكر الله تعالى.

^٨أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ% أكثرهم لا يرون نور الوجود في جميع الموجودات، لا يرون الله نوراً، لا يرون الله ظاهراً، لا يرون ظهور الموجودات به فهم ^٨لَا يَعْقِلُونَ% ^٨أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ% أما ألك الذين وصلوا إلى مقام المعرفة فإنهم يرون كلّ شيء من الله.

من جملة الآيات القرآنية هذه الآية: ^٨دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ% ^(١) فهؤلاء الذين يدخلون الجنة.. فالحجب مرتفعة.. وعيون الباطن مبصرة تدرك الحقائق هناك فيسبحون الله، وقولهم: ^٨سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ%.

اللهم أنت منزّه، أنت مقدّس من كلّ صفات القبح و النقص ومن كلّ الأشياء التي هي أدنى من مقام سبحيتك وقدوسيتك، أنت أعلى وأجلّ من كلّ ذلك، والتحية التي يحيون بعضهم بها هي السلام الذي يصلهم من الله تعالى^١ وءَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ% ما هو آخر قولهم؟^٢ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ% أي تمام مراتب الحمد مختصة بالله تعالى. أي إنّ الظهورات التي كانت في عالم الدنيا وتلك التي كانت في عالم البرزخ وفي عالم القيامة من حور العين والعسل والرضوان الإلهي، جميع الخصوصيات.. وأرواح الأنبياء وأرواح الملائكة... كلّ هذه الظهورات هي ظهورات الله، الحور العين ظهور الله، الملائكة ظهور الله، الأنبياء ظهور الله، ولا شيء غير الله، وكلّ هذه المحامد منحصرة به. وءَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ% يعني: آخر دعوى أهل الجنة فالتفتوا وانتبهوا! إنّ^٣ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ% نعم! لا تنسوا هذا واحتفظوا به!

إذن الحمد أيضا من مختصات الله. عندما تمدح الوردة فأنت تمدح الله، إذن افتح عينك لترّ الله، فإنّه لا وجود للوردة أصلا، ولا شيء يستحق الحمد غير الله، إذن أنت عندما تمدح الوردة إنّما ترى الله وتمدحه، فلماذا تنكرّ الله في نفس الوقت الذي تراه فيه وتمدحه؟!

ومن جملة الآيات أيضا قوله تعالى: ^٤ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ%^(١) الذي يحصر العلم والقدرة به تعالى، ومنها قوله: ^٥ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ%^(٢) الذي

١ - سورة الروم (٣٠) ذيل الآية ٥٤.

٢ - سورة التحريم (٦٦) ذيل الآية ٢.

يحصر العلم والحكمة به تعالى، ومنها قوله: ^١ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ% (١) و
^٢ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ% (٢) الذي يحصر السمع والبصر بذاته، ومنها قوله:
^٣ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ% (٣) أي إنه تعالى هو الذي يحلّ العقد والمعضلات
وهو العليم. فكلّ هذه الأذان، وكلّ هذه الأعين، وكلّ هذه القدرات، وكل
هذه العلوم التي وجدت عند البشر، وجميع هؤلاء العلماء الذين جاؤوا
إلى الدنيا ومضوا تاركين ذخائر من العلوم، فهذه العلوم موضوعة كلّها في
صندوق صغير مغلق، وهي مختصة بالله، ولا يمكن لموجود أن يدعي
ويقول: أنا السميع، أنا البصير... إذن السميع والبصير هو الله، ألا تؤدي
هذه الآيات معنى الحصر؟!

ويعتبر ذلك من مختصات الشريعة الإسلامية المقدسة، ومن
مختصات القرآن الكريم، وهو ما لا نراه في أيّ من مذاهب فلاسفة الدنيا
ومدارسهم، ولا في أيّ كتاب من الكتب السماوية، فلا نجد في سائر
الملل أثراً لذلك حتى الإلهية، فهل يقولون: ^٤ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ%؟؟ كلا! فهم
يقولون: حمداً لله.. أو الله مستحقّ للحمد.. الله سميع كذلك... إلا أن كلّ
ذلك غير قولنا: إنّ جميع مراتب السمع وجميع مراتب الحمد لها
اختصاص بالله. فهذا الذكر من مختصات النبيّ الأكرم الذي فتح نافذته
أمام وجه الأمة ولا مذهب، وليس هناك أيّ أمة ولا مذهب يمتلك مثل
هذا النوع من الذكر، وكم هو عال ورفيع! هذا هو لقاء الله في النتيجة،

١ - سورة الأنعام (٦) ذيل الآية ١٣.

٢ - سورة الشورى (٤٢) ذيل الآية ١١.

٣ - سورة سبأ (٣٤) ذيل الآية ٢٦.

يعني أيها العزيز! افتح عينك على عالم الوجود، فكلّ من تسمعه وكلّ من تراه.. وكلّ من له علم وكلّ من له قدرة.. وكلّ من له حياة.. وكلّ موجود أنت تمجّدّه وتمدحه.. كلّ موجود أنت تعبّدّه، كلّ هذا حقيقته هي الله.

لا تحوّل نظرك إلى هذه المظاهر وتلك التجليات، ولكن ارم ببصرك إلى الذات المتجلية التي تختص بالحياة!! فالحياة له في النهاية!

إذن، هذه الآيات صريحة الدلالة على أنّه في عالم الوجود وجودٌ واحدٌ فقط مستقل بالذات، وهو الله، وجميع الصفات والأسماء التي تملأ العالم، سواء الأسماء الكلية أم الجزئية، هي أسماؤه، ولا شيء خارج عن نطاق قدرته وعلمه وحياته وحكمته وكبريائه.

هذا أحد طرق الاستدلال. التفتوا إليه جيداً! وأعملوا فيه دقّتكم! فتلك الآيات، مهمّة للغاية.

وهناك طريق آخر للاستدلال وهو: أنّ القرآن المجيد يعدّ جميع الموجودات من الموجودات الأرضية والسماوية، ذوات النفوس وغيرها.. يعدّها جميعاً آيات.. ويقول: إنّها آيات الله.

سوف أوضح لكم في البداية معنى الآية لنرى ماذا يريد القرآن أن يقول، وعلى أيّ معنى يريد أن يطلعنا عندما يسمّي هذه الموجودات كلّها باسم "الآية". فالآية تعني العلامة والمشير.

أمّا العلامة، فإنّ الشيء الذي تنظرون إليه في هذا العالم على أنّه علامة، هو الشيء الذي له جهتان:

جهة ذاتية، وجهة علاميّة آيتيّة أي بالنسبة إلى الغير. أليس كذلك؟! ماذا؟ فاللافتة التي تجعلونها عند باب الدار لتدلّ على أنّ هناك مجلس

عزاء، هذه اللافتة لها جهة ذاتية استقلالية وهي التي تتمثل بكونها خضراء اللون، خشبها كذا... قد عُلقَت في ذلك الموضع من الجدار وكُتِبَ عليها كذا وكذا.. سواء كُتِبَ عليها بالحبر أم طُرزت بالخيط.. هذه مثلاً هي الجهات الخصوصية الذاتية للآفتة، ولكن لها جهة.

الجهة الثانية هي الجهة الآتية، أي إنها تشير إلى انعقاد مجلس في هذا البيت وأن الناس مدعوون إليه، إذن، فيها جهة آتية، أليس كذلك؟
 أمّا الشيء الذي لا يكون له جهة ذاتية على الإطلاق، وليس له إلا جهة يدلّ فيها على الغير فهذا هو الآتية المحضّة. مثلاً افرضوا أن لدينا نظارة نظراً بواسطتها، فهذه أيضاً لها جهة ذاتية وأخرى آتية، ما هي جهتها الذاتية؟ هي أن زجاجها أبيض، دائريّ أو مستطيل الشكل، صنع في مصنع معين... هذه هي الجهة الذاتية فيها، وأمّا الجهة الآتية: فهي أنها تُظهر الغير وتحاكيه فقط، فإذا أراد الإنسان أن ينظر إلى ذات النظارة فسوف لن يرى بواسطتها أيّ شيء، مثلاً إذا أراد أن يتأمل النظارة وتحديد نوعيّة زجاجها هل فيه تموج أم لا؟ أين صنعت؟ كيف شكلها؟ فسوف لا يرى شيئاً أصلاً، وأمّا عندما يضعها على عينيه ولا يلتفت إلى زجاجها، فحينها بواسطة نفس هذا الزجاج يتمكن من رؤية الغير، وسوف يرى جميع الموجودات بواسطتها. هذه هي جهة الحكاية والإراءة، وهي حيثية الآتية، أي جهة الإظهار والإبراز.

فالماء الصافي أيضاً كذلك، حاول أن تقفَ قربَ حوض أو مسبح مأوّه صاف هادئ لا تموج فيه، فإنك سترى صورة جميع الأشجار المحيطة بهذا المسبح أو الحوض، وصورة القمر والشمس والنجوم وحتى

صورتك أنت، وكذلك الأشخاص الذين يقفون إلى جانب الحوض، أليس كذلك؟ هذا من جهة الإراءة، أي إن هذا الحوض يُظهر شيئاً غيره. أما لو كان للماء ذاتية، أي كان يُظهر نفسه مثلاً: كأن يكون فيه موج.. أو يكون فيه تلوث، فعندما يكون كذلك يعود قادراً على أن يظهر غيره ولا تنعكس الصور فيه.

المرأة كذلك، لها جهة ذاتية هي أنها من زجاج، ولها وزن بضع كيلوغرامات، ظهرها مطليّ بالزئبق.. هذه هي خصوصيات المرأة الذاتية. ولها جهة أخرى هي أنها تظهر الغير. وكلما كانت جهة الذاتية أقل - في نظر الرائي - كانت جهة الإراءة للغير أفضل.

بعض المرايا لون زجاجها أخضر، أو أصفر، تظهر وجه الناظر فيها أخضراً أو أصفراً. وبعض المرايا فيها تموجات، وعندما ينظر المرء فيها يرى وجهه متموجاً، إذا يحرك وجهه أمام المرأة يرى أنه تارة يكون كبيراً وأخرى يصغر، تبدو إحدى عينيه صغيرة والأخرى تبدو كبيرة، يرى جبينه تارة يرتفع وحاجبه ينزل.. أما لو كان لدينا مرآة ليس فيها أي تموج، إلا أنها كانت تشتمل على بعض الخدوش على ظهرها، انظروا إلى وجوهكم في تلك المرأة فإنها ستبدو وكأنّ فيها خدشا، بعد ذلك تحرقون تلك المرأة بحيث يكون الخدش مقابل الجبهة فترون الخدش على جبهتكم، وإذا نقلتم المرأة إلى هذا الطرف ينتقل الخدش إليه، هذا مع أنه لم يصبكم أي خدش، ولكن المرأة هي المخدوشة، ولأنها بهذا الشكل الذي لا يمكنها معه أن تعكس صورة وجوهكم فإنها تظهر ذلك الشيء فيكم. ولو كان لدينا مرآة قد حفر في ظهرها بمقدار الخال ونظرتم فيها فإنكم

سترون خالاً أو قرحة في وجوهكم مع أنه في الواقع ليس فيها شيء من ذلك، المرأة هي ذات خال وذات قرحة، ولكن وجوهكم تبدو من خلالها مجروحة موشمة أيضاً.

المرأة الجيدة هي المرأة التي ليس فيها شيء من ذلك، و جهة الذاتية فيها قليلة بحيث لا تُبدي شيئاً من نفسها. فعندما تنظرون في المرأة لا ترون شيئاً غير أنفسكم، فهي تُبدي صوركم أنتم، هكذا تكون المرأة وهكذا تكون الآية. هكذا صار المعنى واضحاً؟ توجهتم إليه وفهمتموه جيداً؟ هذا هو معنى الآية: فالآية تعني العلامة فقط دون إضافة شيء آخر. القرآن المجيد يقول: جميع هذه الموجودات آية، آية لله تعالى، جميعها. ماذا يعني هذا؟ يعني إنها مرآة الله المشيرة إليه.

وهذا من مختصات القرآن الكريم وعجيب جداً أن يعدّ القرآن جميع هذه الخصوصيات محصورة بالذات المقدسة لرب العالمين، وجميعها آية، جميعها آية! هذا غريب جداً!! فهو يحصرها بذات الله ويسميتها جميعاً آية.

مثلاً، يقول بالنسبة لعيسى ابن مريم وأمه:

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ%^(١) قد جعلنا عيسى ابن مريم وأمه آية الله، وقد رفعناهما
وجعلناهما في مكانٍ مُحكمٍ ومرتفعٍ وحسن..

الآن عيسى ابن مريم وأمه آية لله، ما معنى ذلك؟ يعني: أن عيسى ابن مريم لا استقلالية ذاتية له، وأمه كذلك، ف عيسى بجميع جوانب وجوده ليس سوى مظهراً لله وكذلك مريم، إذن عندما تنظر إلى عيسى عليك أن ترى الله. كذلك الأمر عندما تنظر إلى مريم، فلا وجود لمريم، بل انظر إلى الله! هذه هي الآية. إذا كانت مريم تُظهر نفسها وذاتها وإيبتها، فسوف لن تكون آية، وإذا كان عيسى كذلك فهو ليس بآية. ولكن الله يقول: نحن جعلنا عيسى وأمه آية.. جعلناهما مرآة.. فخذ هذه المرآة بيدك.. ماذا ستري بواسطتها؟ لا شيء سوى الله.

ويقول: جعلتهم آيةً لي، ولم أجعل عيسى آيةً للقمر ولا للأرض ولا للحكومة أو للمجتمع، لا! بل جعلناه آيةً لنا.. فكل ذلك أيضاً آية ومرآة لنا.

في سورة يس نقرأ:

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾^(١)

نحن جعلنا الأرض لهم آية، فمن الآيات التي جعلت لهم نفس هذه الأرض الميتة، الأرض الميتة.. نحن جعلناها آية.. كيف نحيتها؟ وكيف تنبعث الحياة منها؟ كيف تنبت الأشجار فيها؟ وكيف تخرج الأعشاب والزهور فيصير العالم مليئاً بالنشاط؟ ما هذا؟ كل ذلك يقوم بعملية الإشارة

إلى الله، وهذه الأرض وهذه النباتات وهذا الموت وهذه الحياة التي تخرج من الأرض الميتة كل ذلك آيات الله تعالى.

﴿وَأَيُّ لَّيْلٍ لَّهُمْ أَلَّيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾^(١) أي ومن الآيات التي جعلناها لهم، ذلك الليل الذي نخرج الأرض منه ونسلخها منه كما نسلخ الجلد.

﴿وَأَيُّ لَّيْلٍ لَّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾^(٢) ومن الآيات التي جعلناها لهم، أنا نحملهم ونسير بهم بواسطة تلك السفن المليئة بالركاب والمشحونة بالبضائع. وهذه آيات الله، هذه السفينة التي تجري فوق مياه البحر وتقوم بالإعلان عن الله تعالى، افتح عينك! انظر إلى الفلك! ولكن إياك أن ترى فيها فلکاً أبداً! بل عليك أن ترى فيها الله! الق بنظرك إلى الليل والنهار ولكن لا تلحظ الليل والنهار بل عاين فيهما الله!

تأمل بهذه الأرض الميتة التي نحن نحيتها ونخرج منها الأعشاب وشاهد الله تعالى!

في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣)

وفي سورة البقرة نقرأ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا

١ - سورة يس (٣٦) صدر الآية ٣٧.

٢ - سورة يس (٣٦) الآية ٤١.

٣ - سورة آل عمران (٣) الآية ١٩٠.

بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ%^(١)

ما أروع هذه الآية! فهي تثير العجب!! وما أوضح ما تبين به المطلوب!
تقول: إنَّ في خلق السموات والأرض والاختلاف الذي يقع بين الليل
والنهار - فيكون النهار في بعض الأوقات أقصر من الليل والليل أطول،
وفي أوقات أخرى يكون العكس، وفي مختلف أرجاء الدنيا يشاهد في
كلِّ نقطة من نقاط الأرض هذا الاختلاف بنحو خاص بها - وفي السفن
التي تسير فوق الماء بالناس والبضائع والأموال التجارية وتجول الدنيا من
طرف إلى آخر بواسطة الرياح، فهذه آيات بأجمعها.

كذلك مياه الرحمة التي نُزلها من السماء مطراً، قطرةً قطرة، لا أننا
نفتح باب السماء دفعة واحدة ونجريه فوق رؤوس الناس كنهر "كرج"!!
وإنما هذه المياه ننشرها قطرةً قطرةً مطراً يُحيي الأرض بعد أن كانت ميتةً،
وبواسطته نخلقُ لكم ونبتُّ في الأرض من كلِّ دابة، حتى أنَّ خلقناكم
وخلقة كلِّ الحيوانات والطيور والأسماك والنباتات والجمادات إنما هي
بواسطة هذا الماء، توجد وتحیی به، وكلُّ ذلك آيات لله.

وهذه الغيوم المسخرة بين السماء والأرض وتتحرك بأمر ربها من
مكان إلى آخر، وهذه الرياح التي تهبُّ من هنا وهناك لتلطّف الأرض
وتبرّدها وتجعلها ملائمة للحياة، وتلقح الأشجار وتقوم بوظائف أخرى

عديدة، هذه كلّها آيات وعلامات ^١ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ% لأولئك الذين يستعملون عقولهم فيرونها آيات!

أمّا الذين لا يُعملون عقولهم، لا ينسبون اختلاف الليل والنهار إلى الله، ولا يعدّونه آية لله، يغفلون أصلاً عن خلقة السموات والأرض والأمطار والرياح والسحاب المسخّر وحركة السفن، يقولون: هذه السفن التي تجري فوق البحر إنّما تجري بقوة البخار - التي اكتشفها باين - وبقوة الإنسان الخاصة كما كان يقول قارون:

^١ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ% (١) أي جميع هذه الأموال التي حصلتُ عليها إنّما هي بعلمي أنا، ما دخل الله بذلك؟ فلماذا أنفق؟ فهم لا يرون ذلك من الله، أمّا أهل العقل والدراية، يرون جميع ذلك آية لله، ماذا تعني الآية؟ يعني أنّهم يرون الله دون هذه المظاهر، لأنّه لو أراد الإنسان أن يرى هذه المظاهر فسوف لن يرى الله.. فلو كانت هذه الأمور أشياء تحاكي نفسها فسوف لا تقدر على محاكاة الله وإراءته، لأنّها لا تعود آية!! وإنّما تكون آية حينما تحاكي الله وتظهره، فجميع ذلك مظهرٌ لله، فحينما يسرح الإنسان في مركب داخل البحر، فيلامس الهواء العليل.. ويشاهد الغيوم المسخّرة بين السماء والأرض.. ويعاين ذاك المطر الهاطل من السماء.. وجميع هذه الأصناف وأنواع المخلوقات المعمّرة.. والأشجار والأعشاب التي تنبت وتخضر.. فهذه الليالي وهذه الأيام وهذه السماء، كلّ ذلك يحاكي الله ويظهره، فجميع ذلك آية لله.

كذلك يقول الله العليّ الأعلى في سورة الروم:

وَمَنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^(١)

من آيات الله أن جعلكم أزواجاً، هذه الأزواج؛ فالنساء هم من أنفسكم، لكي يكونوا سكناً لكم، فالرجل الذي لا امرأة له لا سكن ولا راحة،^٨ لَتَسْكُنُوا% أي هنّ سكنٌ لكم، ألم يأت في القرآن المجيد مصدر السكون؟! والعجيب هو أنه آية لله، فقبل إجراء العقد بين الرجل والمرأة لا يكون هناك أيّ شيء المودّة والعلاقة بينهما، فما إن يقع العقد تظهر المودّة والعلاقة، تظهر الصداقة بينهما، هذه الصداقة هي صداقة الله، وليس صداقتهما، والعجيب أن صيغة الطلاق حينما تقع فكذلك ينفكّان عن بعضهما البعض، فتذهب تلك المودّة والرحمة، فهي لمن؟ هي لله.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ% أي كلّ ذلك يشير إلى الله. هذه المرأة هي مرآة تعكس الله. هذا الرجل هو مرآة تعكس الله.

الرجل ينظر إلى المرأة فيرى فيها الله، وهي تنظر إليه فتري فيه الله،^٨ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ%^(٢) كما وإنّ القرآن يبيّن أحوال أهل الجنّة، فإنّ من أهمّ اللذائذ جلوسهم على الأرائك والسُرر، بعضهم في قبال البعض الآخر، هؤلاء ينظرون إلى أولئك، وأولئك ينظرون إلى هؤلاء فهم يتبادلون النظرات، ويتمتعون بهذه النظرات إلى درجة لا يحبّ أحدهم أن يحيد

١ - سورة الروم (٣٠) الآية ٢١.

٢ - سورة الصافات (٣٧) الآية ٤٤.

ببصره عن وجه الآخر، أي إنّه ينظر إليه، والحال أنّ تلك التجليات الإلهية تظهر دائماً في وجوده وهي التي يدركها ذلك الناظر، أي إنّه يرى الله؛ إذن وبناء عليه فالمرأة إحدى آيات الله.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفُ اللَّسَانِ وَاللَّوْنِ كُمْ^(١)

أي من آيات الله، خلق السموات والأرض واختلاف الوجوه والألوان واللغات والألسنة.

ابحثوا بين جميع الناس هل تجدون شخصين على هيئة واحدة، هل تجدون شخصين أعينهما متطابقة؟ نعم قد نجد اثنين متشابهين لا متطابقين؛ هل يمكن أن تعثروا على شخصين ذوي رأسين متطابقين؟ أو أن تكون أذنهما على هيئة واحدة؟ يقول أحد الأطباء: لا يمكن أن يوجد اثنان من البشر على نحو يكون فكاهما على نمط واحد، وهو غير منحصر في زماننا نحن فقط، وإنما من زمان آدم أبي البشر حتى يوم القيامة، لا يمكن أن يوجد اثنان بنفس الأعين من جميع الجهات؛ الأذان كذلك؛ لا يمكن أن يوجد اثنان بنفس الجلد، أظفارهما، شعرة واحدة من كلّ واحد منهما لا يمكن أن تشابه شعرة واحدة من الآخر؛ وأنا أقول شيئاً آخر: حتى في خلية واحدة من بدنيهما لا يمكن أن يتماثلا. خذوا خلية من هذا البدن وخلية من ذلك، ففي كلّ هذه الأزمان منذ آدم وحتى القيامة، لا يمكن أن تكونا على صورة واحدة؛ بل حتى الخليتان من جسد واحد

كذلك الأمر، وهذا لأن الله العلي الأعلى واحد، وتجليه واحد، ولا تكرار في التجلي، وكلّ تجلٍ هو مظهرٌ له مشير إليه، كلٌّ موجود من الموجودات هو مظهر له. واقعا نفس هذا الاختلاف في الألسنة والصُور هو من آيات الله؛ الأصوات تختلف، ابتنان متولدتان من أمّ واحدة لكلّ منهما نغم خاص بها، شكلٌ خاص، قامة خاصّة، وجه خاصّ. أو أخوان توأمان، يولدا من أمّهما مختلفي الصوت، كلٌّ واحدٍ على هيئة وكيفية خاصّة وله خصوصياته رغم أنّهما متشابهين ولكن ذرات وجودهما بأسرها مختلفة فيما بينها.

٨ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ% (١) أي من آيات الله أنكم تنامون في الليل، وتنامون في النهار، فتنامون في النهار وتنامون في الليل وتطلبون رزق الله، فأنتم ترون الله بواسطة هذه المرأة، وأنتم ترون الله بواسطة هذا النوم.

٨ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ% (٢) من آيات الله هذه الرياح التي يرسلها بعنوان أنّها بشارة، ولتذوقوا من رحمة الله.

٨ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ% (٣) أي هذه الشمس وهذا القمر في الليل والنهار، هما آية لله، فهذه آية في النهار، وذاك آية في الله، هما آية يُظهران الله، فحينما تنظرون إلى القمر ترون الله! وعندما

١ - سورة الروم (٣) صدر الآية ٢٣.

٢ - سورة الروم (٣٠) صدر الآية ٤٦.

٣ - سورة فصلت (٤١) صدر الآية ٣٧.

تشاهدون الشمس فإنكم تنظرون إلى الله، وإن تروا الليل وتشاهدوه فأنتم ترون الله، كذلك حينما ترون النهار فإنكم ترون الله.

٨ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ% (١) أي من آيات الله هذه السفن التي تمخرُ عباب البحر كالجبل الشاهق، تنزلق على صفحات الماء.. كالجبل.. إذا شاهدتموها من بعيد ترونها تخالونها جبلاً، والحال أنها ليس جبلاً.. آقا! هي سفينة تقترب من بعيد، لذلك تظنها في الوهلة الأولى أنها جبل متحرك، ثم ينكشف لها أنها لا.. ليس جبلاً.. هي سفينة، كالجبل.. جبل يتحرك على ظهر الماء.. جميع ذرات هذا المركب آية الله؛ فإذا، كل ذلك هو الله، ما معنى أن جميع ذلك هو الله؟ يعني أنه آية، فهي ليست آية لشيء خاص، كما وليست آية لإظهار ذاتها!! فجميع ذلك آية لإظهار الله.

فإذن، كل من ينظر إلى شيء من هذه الموجدات فإنه ينظر إلى الله، وهو قد شاهد الله، فلقاء الله من خلال ذلك أوضح، وهو سهل للغاية، فهو سهل إلى الحد الذي يجعل الإنسان لا يرى غير الله، فالشخص الذي ينكر وجود الله مع وجود هذه الآيات، ويقول: لا أثر لله! فهو ينطبق عليه: **عميت عين لا تراك عليها رقيباً، فعينه عمياء.**

رحم الله الحاجَّ المرحوم **الحاجَّ هادي الأبهري**، كان يقول: كان هناك إسكافٌ معروفٌ يصلح النعال في أبهر، كان هذا الإسكاف يصلح الأحذية ويخيط خرق الأحذية أيضاً، ولكن كان قلبه نيّراً، فكان له سرٌّ

وعلاقة عميقة مع الله.. مناجاة.. حالات.. وكذا.. فذات يوم جاءه أحد المعممين أبهر ودون أيّ مبالاة وكان يقول له: ماذا؟! يمكن للإنسان أن يرى الله!! بهذه العين يمكن أن نرى الله؟! أنت تقول: بإمكان الإنسان أن يرى الله!! بواسطة هذه العين يمكنه رؤية الله؟! فوضع الإسكاف إصبعيه في عيني ذاك المعمم وقال: هاتان العينان اللتان لا تريان الله هما عينان زجاجيتان.. وليستا عينان حقيقيتين، فهاتان الزجاجتان التي هما بدل عينيك لا مكن أن تريا الله، وإلا فمن يمتلك عيناً فإنه يرى الله؛ ^١ إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ% (١) أي العيون لا تعمي وإنما الذي يعمي هو العين التي في القلب، حينئذ لا يعود بإمكانه أن يرى الله.

وعلى كل تقدير، هناك عجيبة في القرآن المجيد تقول:

^٢ سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ% (٢) يعني: سوف نريهم آياتنا بسرعة وبشكل قطعي وسنظهرها لهم، وذلك في نحوين: في الأفاق، أي ما هو خارج عن وجود ذاتهم، من الجبل والباب والصحراء واليابسة والخضار والماء والشمس والقمر والمراكب والهواء والغيوم واختلاف الليل والنهار والنساء والرجال والبلابل والحيوانات سواء المواشي أو المفترسة والأسماك والبحر وطيور

١ - سورة الحج (٢٢) ذيل الآية ٤٦.

٢ - سورة فصلت (٤١) الآية ٥٣ و ٥٤.

الهواء... جميع ذلك آيات الله ومرايا قد نصبناها لإراءة الله، فالآية تعني: المرأة، وجميع هذه الموجودات مرآة لله، وكل شخص يستعين بمرآة ويشاهد من خلالها، ولكن عليكم أن تفكروا بهذه المسألة وهي: أنه إلى أي حد قد أظهر الله نفسه من خلال هذه الآيات؟! فمن الطبيعي أن كل واحدة من هذه الآيات التي نرى الله من خلالها هي مرآة، فنحن لم نُعطى مرآة واحدة، وإنما أُعطي لكل شخص في كل لحظة المليارات من المرايا.. المليارات من المرايا!! والتي يرى بواسطة كل واحدة منها ناحية من الله، ويستطيع أن يتشرف بلقاء الله بواسطة كل واحدة منها، ولكن هذا فيما لو لم ينظر إلى ذاك الموجود بنفسه ولا يراه، وإنما يرى الآية، ويلحظه كمرآة، ها..! كذلك ما إذا تذهبون إلى الدكان الذي يبيع المرايا، فتحملون المرأة وتفحصونها وتنظرون إليها لأنكم تريدونها بنفسها، حينئذٍ سوف لا تلتفتون إلى صورتكم المنعكسة فيها، وأما لو تريدون أن تنظروا إلى أنفسكم، فحينئذٍ سوف تُعرضون عن النظر إلى نفس المرأة، ولا تتوجهون إلى الآية نفسها، وإنما تنظرون من خلالها وبواسطتها نظرة آيتية ومرآتية، كذلك انظروا على أساس هذه النظرة إلى سائر الموجودات! فحينما تنظرون إلى زيد لا تشاهدوا زيد! وإنما انظروا إلى الله من خلاله، كذلك عمرو حينما تنظرون إليه.. أو تنظرون إلى الشجرة.. أو ترون البلبل.. تنظرون إلى الماء، فلتروا الله في كل ذلك، لأن كل ذلك مظاهر، يعني هي محل ظهور الله، يعني هي ليست شيئاً من نفسها، وإنما هي ظهور الله، فهي "مَجلى" بمعنى: محل تجلي الله، وهي لا شيئية لها من ذاتها وإنما هي مَظَرٌ لله. فهذا حينما يراك وينظر إليك، وعليه فإنه لا يرى

شيئاً غير الله، وهذا هو معنى قوله تعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم.

ما معنى "الأنفس"؟ "الأنفس" تعني: أن تشاهد نفسك وتنظر إليها، أي تعال من الخارج وادخل في نفسك، فذات النفس هي آية من آيات الله.. هي آية كبيرة بل وأكبر آية، حتى أن الكثير ملتزمون بأن آية النفس هي الأهم بالنسبة لسائر آيات الله، وأن الذين يرومون السير التكاملي عن طريق التفكير بالنفس والتوجه إليها، يصلون إلى هدفهم بشكل أسرع، لأنهم يسيرون من خلال المرأة الأكبر، والتي هي توأم مع ذات الإنسان، وأقرب إليه من كل الأشياء، فيريدون أن يشاهدوا الله بواسطة هذه المرأة الواسعة.

فنحن نظهر الآيات الآفاقية والآنفسية حتى يتضح لهم أنه هو الحق دون غيره، كم هو لطيف هذا الكلام؛ من أنه لو تنظرون إلى وجود جميع هذه الموجودات بشكل مستقل فإنها باطل بأجمعها، والله هو الحق فقط، ففي جميع العوالم^٨ أنه الحق أي: الله دون غيره، فالله هو الحي، الله العليم، الله الحكيم، والله هو القدير، الله الخبير، وليس لشيء من هذه الموجودات أثر من هذه الأسماء والصفات.

^٨أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَي: إن الله اطلاع وهيمنة وسيطرة، وكل الموجودات في قبضة الله ومشهودة له، وفي محضره؛ فهي في محضرة تكويناً ووجوداً ومندكة في ذاته^٨ ألا إنهم في مريّة من لقاء ربهم% فلا ينبغي أن يكون للإنسان شك في الله، كما ولا

يكون لديه شك في لقاء الله، لأن جميع هذه الآيات الأفقيّة والأنفسيّة إنّما هي مظهر لله، ولكن واقعهم: ^٨إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ% فهؤلاء الناس في شك، يشكّون في إمكانية لقاء الله وإمكانية رؤيته، عجيب كيف أنّ هذه الآية ^٨أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ% قد وقعت بعد قوله ^٨سُنِرِهِمْ أَأَيَّتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ%. يعني: إنّ إظهارنا وإراءتنا للآيات الأفقيّة والأنفسيّة، بل نفس الآيات الأفقيّة والأنفسيّة إنّما هي لأجل لقاء الله، فجميع هذه الآيات هي لقاء الله، إلا أنّ هؤلاء الناس ^٨فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَأَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخِيطٌ% أي فليعلموا! أنّ الله محيط بكلّ شيء، فأيّ شيء يمكن أن تسموا شيئاً فإنّه الله محيطٌ بوجوده وأسمائه وصفاته، وحقيقة ذلك الشيء مندكّة في أسماء الله وصفاته، يعني هو الله.

لأجل ذلك، فإنّ هذه الآية إحدى الآيات القرآنيّة العجيبة جداً، وهي مشتملة على جهاتٍ عديدة تستحقّ البحث، وينبغي التدقيق فيها، فإنّها تثبت لقاء الله بالنسبة لنا بشكلٍ جيّد، كذلك الآيات الأخرى التي بيّناها وذكرناها خلال توضيحنا معنى الآية.

حسناً، على ذلك فإنّه هناك آياتٌ في عالم الوجود، آيات تظهر لله، إلاّ أنّه لو لم ينظر الإنسان إلى هذه الآيات بنظرة آيتيّة ومرآتيّة، وإنما توجه إليها من خلال نظرة استقلاليّة فسوف لن يرى الله، فلو لم ينظر الإنسان إلى هذا الماء أو هذه الشجرة أو هذا الجبل نظرةً آيتيّة، فبالطبع سوف لن يرى الله، وسوف يكون ذلك سدّ الطريق لرؤية الله.

كما أن القرآن يقول: ^١إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ% (١)
 أي إن ذلك آية ولكن أكثر الناس لم يؤمنوا، أي لم يرو ولم ينظر إليه نظرة
 آيتية، بل رآه على نحو الاستقلال، فينبغي أن يراه كآية، حيثل سوف يرى
 الله، ولكن الأكثرية لم يروا. هذه الآية قد جاءت في القرآن الكريم عن
 لسان الكثير من الأنبياء الذين كانوا يدعون قومهم .. ^٢إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ% أي الأكثرية لم يؤمنوا..
^٣وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا% (٢) بمعنى أنهم لم ينظروا إلى الآية
 كآية.

^٤وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ% (٣) أي
 ما تأتيهم آية من آيات الله لتوجههم نحو رؤية الله ومشاهدته من خلالها،
 إلا وكانوا يعرضون عنها، يعني: كانوا ينظرون إليها نظرة استقلالية، لا نظرة
 آيتية!!

^٥وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ% (٤) أي كم هناك من الآيات الكثيرة في السموات والأرض، ومع
 أنهم يرونها جميعاً، إلا أنهم يعرضون وينصرفون عنها، يعني ماذا يفعلون؟
 يعني: لا ينظرون إلى هذا النبي نظرة آيتية، ولا يرون السماء آية، ولا
 الأرض، وسائر هذه الخصوصيات فهم لا ينظرون إليها نظرة آيتية، وإلا

١ - سورة الشعراء (٢٦) الآية ٨.

٢ - سورة الأعراف (٧) قسم من الآية ١٤٦.

٣ - سورة الأنعام (٦) الآية ٤. وسورة يس (٣٦) الآية ٤٦.

٤ - سورة يوسف (١٢) الآية ١٠٥.

فلو يتوجهون إليها بنظرة آيتية فسوف يرون الله؛ ولكنهم لا يرونها آية، بل ينظرون بالنظر الاستقلالي، لذلك فسوف لا تكون هذه الآيات سبباً للقاء الله، لأجل ذلك فهم يرون الله وينكرونه!! فقد جلسوا على مائدة الله وأنكروا.. فقاموا بكفران النعمة.. وأما أولئك الذين قلوبهم منورة بنور التوحيد، الذين نورَ الله العليّ الأعلى قلبهم بسبب العبادات والطاعات، فهؤلاء على العكس.. يرون الله من خلال هذه الآيات.

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا^(١) هذه الآيات التي تلونها هذا الليلة كانت تتعلق ببعض الأنبياء السالفين الذين هم من ذرية النبي إبراهيم وإسرائيل، إلى أن يقول: ^٨ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا^(٢) أي أولئك الذين اجتبيناهم وانتخبناهم و ^٨ هَدَيْنَا% أي هديناهم، فإن في هؤلاء بعض من كان بحيث إذا تُتلى عليه آيات الله ^٨ خَرُّوا سُجَّدًا% أي كانوا يقعون على الأرض ويخرون على وجههم ساجداً باكياً. يعني كانوا يرون الله من خلال هذه الآيات التي كانت تُتلى عليهم.. وكانوا يستشعرون بالعظمة الإلهية.. وكانوا يرون جلالنا وكبريانا.. لذلك كانوا يقعون ساجدين، فإذا كانوا يلحظون من هذه الآيات جهة آيتيتها، ويرونها كعلامة ودليل يدلّ علينا، وإلاّ فنفس الآية لا تؤدّي إلى البكاء من ناحية وجودها الاستقلالي، وإنما من ناحية وجودها المرآتي.

١ - سورة مريم (١٩) ذيل الآية ٥٨.

٢ - سورة مريم (١٩) قسم من الآية ٥٨.

على كل تقدير، هذه الآيات القرآنية تبين أن جميع الموجودات آيةٌ ومَظْهَرٌ لله، وفيما يتعلّق بالنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم حول ليلة المعراج يقول: ^١ فَأَرْنَهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى% أي إنّ الله قد أرى النبيّ الأكرم الآية الكبرى، يعني تلك الآية التي هي أكبر من سائر الآيات، وذلك لأنّ جميع الموجودات هي مرايا، إلا أنّ المرايا تختلف عن بعضها البعض، فلو حملتم مرآةً في صغيرة في يديكم، سوف لا ترون من خلالها أكثر من أسنانكم.. ولو كانت أكبر لأرتكم فمكم.. ثمّ لو كانت أكبر لأبانت كلّ الوجه.. والمرآة الأكبر من ذلك تُري جميعَ البدن، فهي مرآة تامّة في الظهور، ثمّ تصوّروا أنّ هناك مرآةً نضعها أمامكم ترون بواسطتها ما في داخل بدنكم؛ فترون الخلايا.. وكيفية جريان الدم.. ونبضات القلب، ثمّ تخيلوا أنّ هناك مرآةً أمامكم تقرأون بواسطتها كيفية تفكيركم، وتحاكي ما لديكم من العلوم والقدرة والشجاعة وما شاكل ذلك، فالمرايا تختلف عن بعضها البعض!! لذلك فإنّ كلّ عالم الوجود هو مرآة:

كأى أفتاب آئنه دار جمال تو>^(٢)

أي إنّ الشمس حاكية لجمال الله، ولكنّ هناك مرآة كلّ شيء فيها مشهود وجليّ، إلا وهي المرآة الكبرى.

١ - سورة النازعات (٧٩) الآية ٢٠.

٢ - في خطاب لمعشوقه ومحبيه يقول له: أيها الإنسان الذي تكون الشمس بالنسبة لك كالمرآة تظهر جمالك، هذا الجمال الذي هو وجود الأشياء، فكلّ هذه الموجودات الموجودة في العالم موجودة، إلا أنّها ليست ظاهرة بدون الضوء والنور، والشمس مثل المرآة وهي السبب المظهر للجمال.

النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَلَغَ ذَلِكَ الْمَقَامَ الَّذِي أَظْهَرَ اللهُ لَهُ تِلْكَ الْآيَةَ الْكُبْرَى وَأَرَاهُ إِيَّاهَا، يَعْنِي: قَدْ أَنْدَكَ وَجُودَهُ وَانْمَحَى فِي الْاسْمِ الْأَعْظَمِ وَفِي التَّجَلِّي الْأَوَّلِ، فَأَرَاهُ الْمَرَاةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي مَقَامِ الْأَحْدِيَّةِ وَمِنْ نَقْطَةِ نَظَرِ مَقَامِ الْوَاحِدِيَّةِ؛ يَعْنِي: ذَاتَ اللهِ الْمَقْدَسَةَ، وَهُوَ قَدْ فَنِيَ فِيهَا، وَأَصْبَحَ مُتَحَقِّقًا فِي اسْمِ الْوَاحِدِيَّةِ فِي مَقَامِ الْبَقَاءِ، هَذَا الْاسْمَ الَّذِي تَنْدَكَ فِيهِ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ وَتَفْنِي فِيهِ كُلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَمِنْ خُصُوصِيَّةِ هَذِهِ الْمَرَاةِ أَنَّهَا مِنْ جِهَةٍ تُرَى الذَّاتَ وَتُظْهِرُهَا وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَرَايَا وَكُلَّ تِلْكَ الْآيَاتِ مَنْدُكَةٌ فِي هَذَا الْاسْمِ، فَهِيَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ^٨ فَأَرَبُهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى%.

حسنًا.. هذه الليلة قد استدللنا على امكانية لقاء الله بواسطة هذين الطريقتين المصرّح بهما في القرآن المجيد: أحدهما من ناحية الآيات، تلك الآيات الدالة على انحصار السمع والبصر والعلم والقدرة وغيرها في الذات المقدسة لله، والتي على الإنسان أن يسعى بالتدرّج للوصول إليها والتحقّق فيها بحول الله وقوّته، وذلك بواسطة العلم والعمل ليبلغ مرحلة لا يعود يرى الجنبه الذاتية لهذه الآيات وإنّما ينكشف له بواسطتها الجانب الإلهي.

حقّ بين نظري بايد، تا روى تو را بيند

چشمی که بود خود بین، کی روى تو را بيند^١

فبالمقدار الذي ينحسر النظر الاستقلالي فسوف يقوى النظر إلى الله ويزيد، وكلّما ازداد النظر إلى الجهة الاستقلالية فإنّه الجنبه الآيتية سوف

١ - لا بدّ أن يكون الشخص يرى الحقّ حتّى يرى صورتك، فعين الأحوال (الذي لا يرى إلّا نفسه) لا ترى جمالك وصورتك.

تضعف وتنحسر، ولا يعود الإنسان يرى الله، فلو أخذتَ مرآةً سالمةً ثمَّ وضعتَ يدك عليها أو خربتها، أو تمسح الزئبق من خلفها وتجرحها وما شابه ذلك.. فسوف تُظهرُ هذه المرآة تلك الخطوط المتعاكسة إلى الحدِّ الذي تخاف أنتَ من صورة نفسك! فترمي بها على الأرض وتكسرها، والحال أنه لا يوجد مرآة أخرى.. هكذا حال الإنسان من أثر المعصية، فتزداد عنده جنبه الرؤية الذاتية والاستكبار والاستقلال، إلى الحدِّ الذي لا يستطيع معه أن يرى الله، وعلى العكس من ذلك فيما لو يتقدّم في خطى الطاعة، فإنَّ نظره الاستقلالي ينحسر، ويرى الله.

درآ در وادی ایمن که ناگاه

درختی گوید ات ^اانّی انا الله %^(۱)

محقق را که وحدت در شهود است

نخستین نظره بر نور وجود است^(۲)

دلی کز معرفت نور وصفا دید

ز هر چیزی که دید اول خدا دید^(۳)

جهان جمله فروغ نور حق دان

حق اندر وی ز پیدائیسست پنهان^(۱)

۱ - أُ دخل في الوادي الأمين، كي تفاجئك الشجرة وتقول لك: إني أنا الله.

۲ - المحقق الذي يتأمل ويدرس مسائل التوحيد ويتدبّر فيها هو الذي يتمكّن من أوّل نظرة أن يشاهد الوحدة شهوداً وعباناً، ويرى نور الوجود بدلاً من أن يرى الأشياء، ثمّ بعد ذلك يرى الأشياء في المرحلة التالية.

۳ - القلب الذي صفيّ بنور المعرفة فإنه يرى الله تعالى من أيّ شيء ينظر إليه.

رمد دارد دو چشم اهل ظاهر

که از ظاهر نبیند جز مظاهر^(۲)

زهی نادان که او خورشید تابان

به نور شمع جوید در بیابان^(۳)

عَلَم چون برفرازد شاه پرخوار

چراغ آنجا نماید چون شب تار^(۴)

فرشته گرچه دارد قرب درگاه

نگنجد در مقام لي مع الله^(۵)

چو نور او ملك را پر بسوزد

خِرَد را جمله پا و سر بسوزد^(۶)

والخلاصة أنه على الإنسان أن يسير نحو الله حتى يطوي جميع

مراتب الوجد..

۱ - لا بد لك وأن تعلم أن كل العالم هو ظهور وضوء ونور لله تعالى، فالله تعالى مخفي في هذا العالم من شدة ظهوره وشدة شهوده.

۲ - عيون أهل الظاهر مصابة بالرمد لأنها لا ترى من الظاهر إلا المظاهر دون الله تعالى.

۳ - أنظر إلى الأحمق والجاهل كيف يبحث عن الشمس بواسطة شمعة، والحال أن الشمس فوق رأسه لكنه لا ينظر إليها فهو أبله وأحمق.

۴ - الشمس إذا تغيب يظلم العالم، وحينئذٍ نحتاج السراج والشمعة، وأما مع وجودها فلا نحتاجها.

۵ - الملائكة وإن كانوا مقرّبين إلى الله لكنهم لا يدخلون في مقام لي مع الله فليس لهم سعة لذلك. وهو إشارة إلى كلام النبي حول شدة قربه من الله، حيث تظافر في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

۶ - السبب الذي لأجله يحرق الله أجنحة الملك، بهذا السبب بعينه يحرق الله العقل، لأن العقل لا يمكنه - لا هو ولا رأسه ورجله - أن يبلغ مرتبة لي مع الله.